

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

فعاليات الوصف في شعر الأندلسيين النازحين إلى الإمارة الحفصية
خلال القرن السابع الهجري
Activities of description in the poetry of
Andalusians displaced to the hafsids emirate during the seventh century AH

حميد طريفة Hamid Trifa
جامعة الحاج لخضر- باتنة 1 / الجزائر
University El-Hadj Lakhdar- Batna1 /Algeria
hamid_trifa@yahoo.com
إشراف: أ.د/ محمد حجازي Mohamed Hidjazi
جامعة الحاج لخضر- باتنة 1 / الجزائر
University El-Hadj Lakhdar- Batna1 /Algeria
medhidjazi@gmail.com

المؤلف المراسل : حميد طريفة Hamid Trifa الإيميل: hamid_trifa@yahoo.com

تاريخ القبول : 2024 - 04 - 02

تاريخ الاستلام: 2023 – 12 – 10

الملخص:

عالج المقال الوصف في الشعر الأندلسي خلال القرن السابع الهجري، و اعتمد على مدونة منتقاة لثلاثة شعراء أندلسيين نازحين إلى الامارة الحفصية: ابن الأبار، حازم، ابن سعيد، فرغم ازدهار الوصف في الشعر الأندلسي، لم نعثر على دراسة تناولته عند هؤلاء الشعراء. باستثناء ما يرد في تضاعيف بعض المؤلفات، و هي إشارات سريعة و مقتضبة. و تكمن أهمية الموضوع في اعتبار مهارة الوصف إحدى ملكات التعلم، و آلية تواصلية فعالة، تسمح بنقل المعارف و الخبرات، و حفظ التراث. و من هنا نهض المقال ليعتني بوصف الطبيعة في الشعر الأندلسي، وفق آليات المنهج الموضوعاتي، رغبة في إعطاء هذا الفن الجميل حقه من البحث، و سعيا إلى كشف تقنيات الوصف فيه. و من النتائج المتوصل إليها: صف الطبيعة الصامتة في المقام الأول، ثم وصف الطبيعة الصناعية، ثم وصف الطبيعة الحية بصورة أقل. وسجل البحث نزوع الوصف إلى الحسية، و وصف الأشياء أكثر من وصف الحالات، و المزاجية بين الوصف التسجيلي و الوصف الوجداني.

الكلمات المفتاحية: وصف، شعر، أندلسي. طبيعة صامتة، تسجيلي، وجداني

Abstract:

The article treat with description in andalusian poetry during the seventh century AH, itw as based on a selected blog of three andalusian poets displased to the hafsids emirate: ibn al-abar, hazem, ibn saeed, despite the flourishing of description in andalusian poetry, we did not find a study that dealt with it among these poets, except for what is mentioned in the multiplications of some books, these are quick and brief signals. The importance of the topic lies in considering the skill of description one of the qualities of learning, and an effective communication mechanism, allowing the transfer of knowledge and experiences, of heritage. from here the article began to focus on describing nature in andalusian poetry, according to the thematic approach, desiring to give this beautiful art its due research, and in an effort to reveal the techniques of description in it. Among the results obtained: described silent nature in the first place, then described artificial nature, then described living nature to a lesser extent. The research recorded the tendency of description towards the sensory, and descibing things more than describing situations. And the combination between documentary description and emotional description.

Keywords: description, poetry, Andalusian, silent nature, record, emotional.

. مقدمة:

استطاع العرب أن يحملوا لغتهم كل ما تحمل من الفنون الجميلة، من ملهومات و أسرار، فالموسيقى بألوانها، و أنغامها، و مقاماتها، قد حوّاها الشعر العربي في تفعيلاته و بحوره و قوافيه. و التصوير و الوصف قد تكفل به البيان¹. و هذا الأمر يبرز قدرة فائقة للغة العربية، و طاقة تصويرية تتجاوز ما في لغات العالم من قدرات و طاقات في هذا المضمار، فهي حاملة آخر الرسائل السماوية إلى البشرية جمعاء.

و تعدد معاني و مفاهيم لفظة (وَصَفَ) بتعدد مجالات المعرفة الإنسانية، و تنوع الحقول الثقافية التي توظفها، علمية كانت أو أدبية... و مهما يكن من أمر هذا التعدد، فإن التراث الثقافي العربي . لغة، و بلاغة، و نقدا . قد احتفى بالوصف على غرار مختلف ثقافات الشعوب الأخرى، و كان ذلك منذ زمن مبكر، قد يعود إلى مرحلة الثقافة الشفهية، و ازداد الاهتمام به مع بداية مرحلة جمع و تدوين المعارف العربية في شتى المجالات، إلا أن هذه الجهود لم تستطع أن تبلور نظرية عربية متكاملة لمفهوم الوصف، و اكتفت جل الدراسات القديمة بتقديم تعريفات مختصرة، لا تلامس جوهر الوصف بل وقفت عند حدوده الخارجية فقط، رغم الروافد الأجنبية الفكرية و الأدبية التي استفاد منها العرب مع بدء حركة التأليف.

يجب أن تحتوي مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث و وضع الفرضيات المناسبة، بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث و منهجيته.

2. مهاد نظري:

من الرواد الأوائل النقاد و البلاغيين الذين تطرقوا إلى مفهوم الوصف في الثقافة العربية، ابن طباطبا العلوي (ت 322هـ) إذ يقول: ((و اعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف و التشبيهات و الحكم ما أحاطت به معرفتها، و أدركه عيانها، و مرت به تجاربها، و هم أهل وبر: صحتهم البوادي و سقوفهم السماء. فليست تعدو أوصافهم، ما رأوه

العربي، في براعة و دقة، تجعل من الصورة الكلامية أوضح، و أجمل من أية صورة أبدعتها يد فنان بارع صنع ألوانها و ظلالها بيد عبقرى حكيم، فكل هذه الفنون تضمنتها الكلمة العربية بين حروفها

منها و فيها... من ماء وهواء و نار و جبل و نبات و حيوان و جماد و ناطق و صامت و متحرك و ساكن))². إن هذا الجرد للموصوفات من عناصر الطبيعة التي ضمنها الشاعر العربي قصائده و مقطعاته، هي في مجملها أشياء محسوسة، و يسود الاعتقاد أن الشاعر العربي القديم أقدر على وصف الأشياء، عكس زميله الغربي الأقدر على وصف الحالات، ما جعل شعر الملاحم أكثر حضورا في الشعر الغربي و يكاد لا يذكر في الشعر العربي القديم.

كما تعرض قدامة بن جعفر (ت 337هـ) للوصف، مشيرا إلى واقعيته و ماديته متأثرا في ذلك بالإرث اليوناني في هذا الباب، فقال: ((إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال و الهيئات، و لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه و أولاها حتى يحكيه بشعره و يمثله للحس بنعت))³.

و ألح أبو هلال العسكري (ت 395هـ) على وجوب الإلمام بخصائص الموصوف و معانيه، طلبا لحصول الإجابة في الوصف و البراعة في هذا الفن، فقال: ((ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك، فتراه نصب عينيك))⁴. فالشاعر المجيد في الوصف، هو من استجاب لهذه المعايير، و منها مطابقة الوصف لأحوال الموصوف و استيعاب تفاصيله و جزئياته. ((و للإيفاء بهذا الغرض في إبراز الشيء و تمثيله للعين، و جب الإلمام بمكونات الشيء و خصائصه، و هو ما يطلق عليه الغربيون تسمية nomenclature. و كلما كان الوصف أجمع و أكثر إحاطة بخصائص الشيء، كان أبلغ و أدعى إلى تحقيق الغاية و بلوغ المأمول في الجودة و إثارة الالتذاذ الفني))⁵.

الموضوع وأهميته القصوى في مختلف المجالات، فمهاره الوصف يمكن عدّها ملكة من ملكات التعلم، وآلية تواصلية فعالة، تسمح بنقل المعارف، وحفظ تراث الأمة على مر الزمن.

و للوصف في الشعر العربي مستويات تعكس تطوره عبر الزمن، وترسم المراحل التي قطعها تبعاً لطبيعة الأشياء. نشوء وتطورا. حتى استقام على سوقه كغرض من أغراض الشعر وفن من فنونه. فقد مر الوصف في الشعر العربي بمراتب ومستويات، حيث نشأ بسيطاً هينا يكتفي بنقل الأشياء بواقعية وأمانة، معتمداً على الحس، مقابلاً بين الظواهر المختلفة، مستخلصاً التشابه القائم فيما بينها في بساطة وحرص على المطابقة. ولعل هذا المستوى من الوصف، هو ما كان سائداً في الشعر العربي في العصر الجاهلي، ((فالوصف النقلي هو أهم أسلوب من أساليب التعبير لدى الجاهلي، لأن عجزه عن تداول المعاني جعله يرسمها رسماً. إن التعبير عن ساق الفرس بالمعاني والأفكار، يصعب بل يستحيل عليه، لذلك قابل بين هذه الساق وساق أخرى تشابهها، راسماً المعنى الذي في ذهنه، بصورة رآها في بصره. لهذا نرى أن الوصف في هذه المرحلة، هو وصف نقلي، يقتصر هم الشاعر فيه، على اكتشاف التشابه، التي تشخص بين مشهدين مختلفين))¹¹. ويمكن أن نلمس هذا النمط من الوصف القائم على تشبيه صورة مادية بصورة مادية أخرى في الشعر الجاهلي بشكل واسع، من ذلك قول امرئ القيس¹² عند وصفه لفرسه

لَهُ أَيُّظَلَا ظَنِّي وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِزْخَاءً سَرَحًا وَتَقَرِّبُ تَنْفُلٍ
حيث شبه خاصرتي فرسه بخاصرتي الضبي في الضمور من جهة، وساقيه بساق النعام في الانتصاب والطول من جهة أخرى، أما في الشطر الثاني من البيت، فشبه أسلوب جري فرسه بأسلوب جري الذئب في الخفة، وولد الثعلب في كون موطن القدمين هي نفسها موطن اليدين. حيث أورد أربع تشبيهات في البيت، وهو تشبيه المادي بالمادي في كلا طرفيه، يقوم على النقل التسجيلي، وتقرير الواقع كما هو

أما الحسن بن رشيق (ت 456هـ)، فقد أشار إلى الوصف، وعقد له باباً في كتابه (العمدة) حيث عده أوسع أبواب الشعر العربي وأكثر حضوراً في مختلف أغراضه، فقال: ((الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه، مشتمل عليه وليس به، إلا أنه كثيراً ما يأتي في أضعافه، والفرق بين الوصف والشبه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء، وأن ذلك مجاز وتمثيل))⁶. وواصل كلامه عن التأنق في الوصف ومعياري حصول الإفادة فيه والبراعة في إظهار الموصوفات، فقال: ((وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثل عياناً للسامع... وقال بعض المتأخرين أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً. وأصل الوصف الكشف والإظهار))⁷.

و الوصف. بعد هذا وذاك. ((شكل من أشكال القول ينبئ عن كيف يبدو شيء ما، وكيف يكون مذاقه ورائحته و صوته و مسلكه و شعوره))⁸. و من أهداف الوصف مقاصده تقديم صورة الموصوفات رفقة انطباعات الواصف وحالته الوجدانية، فقد جاء في معجم المصطلحات الأدبية: ((و من الأغراض الأولية للوصف تصوير انطباع حسي و الدلالة على مزاج نفسي، كما يحاول الوصف أن يجعل تلك الانطباعات الحسية أو الحالات الوجدانية مماثلة عند القارئ من ناحية حيويتها ومشابهتها للواقع، لما كانت عليه لدى الكاتب عند تلقي الانطباع أو ملاحظة الحالة الوجدانية))⁹.

و أما في عرف الأدباء فالوصف: ((تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلًا يصل بك إلى الأعماق، إلى غير هاتيك العناصر التي قد يحتاج وصفها إلى ذوق فني... كتلك المناظر التي تخلق لب المتأمل وتملكه، وتأسر بفتنتها المتمعن وتسحره، فيطيل في قسمايتها التأمل، ويدمن في أجزائها التمتع، ثم يصورها بعدئذ في الصورة التي يرتضيها ذوقه، و يقبلها فنه))¹⁰. و من كل هذه التعريفات التي قدمها الدارسون للوصف في الشعر العربي، سواء كانوا قدامى أو محدثين، تبرز قيمة هذا

فَمَا الْقُرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ، تَرْمِي أَوَادِيَهُ الْعَبْرَيْنِ
بِالزَّبْدِ
يَمُدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَجِّحٍ لِحَبِّ، فِيهِ رَغَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَ
الْخَضْدِ
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَأُ مُعْتَصِمًا بِالْخَيْرِ زَانَةً بَعْدَ الْأَيْنِ وَ
النَّجْدِ
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيَّبَ نَافِلَةً وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ
دُونَ غَدِ

يصف الشاعر ممدوحه بالكرم، مشيدا بجوده و كثرة عطائه، مشبها إياه بفيضان نهر الفرات، فيقول فيما معناه: إن نهر الفرات على عظمتة و كثرة مائه، و ما فيه من مظاهر الوفرة و القوة، ليس بأجود من الممدوح الذي لا ينقطع كرمه و لا يتوقف رفده، و يديه البيضاء سابغة على رعيته و الناس أجمعين.

و بعد تجارب طويلة في محراب الفن، و محاولات واسعة في ميدان الكلمة، راح الشاعر يصدر عن وجدانه الخاص و خبراته النفسية، عازفا على أوتار قلبه نغمات السمو الفني، فبعد أن كان يتوقف في شعره عند الحدود الخارجية للمشاهد الحسية و بعض الظواهر المعنوية واصفا لها وصفا باردا منفصلا عنها. ها هو يتمكن بعد طول مراس من أن يتحد نفسيا مع عناصر الطبيعة، و أضحى الوصف لديه يصدر عن وجدان و عاطفة أكثر من ذي قبل، ((و هنا تغدو الظاهرة شبيهة برمز، أو عنوانا لكتاب مكتوم و تقية لمعاني مخبوءة. فالشاعر يتحول من الظاهرة إلى ما وراءها أو ما حولها، محاولا أن يستطلع منها أو أن يفسرها. و هكذا، فإن المشهد ينتقل من حواس الشاعر إلى نفسه، إلى ضميره، بصورة إنسانية حية))¹⁶. فإذا كان الشاعر في الوصف النقلي و المادي يقف من الأشياء و الحالات الموصوفة، موقف الناقل لها كما هي تبدو لحواسه، فإن الوصف الوجداني أصبح يتخطى حدود المشهد أو الحالة، إلى ما وراءها في محاولة للنفاذ إلى داخلها و تفسيرها، و كأنها جزء من نفسه و بعض من وجدانه، ((و هذا النوع من الوصف أرقى من

معطى للحواس. ((فقد كان الشعر في العصر الجاهلي، مثلما كان في حقبة تاريخية قديمة، ينزع إلى التسجيل الدقيق للتفصيلات، و إلى العناية الفائقة بالمشاهد الحسية للحياة، سواء في أشكالها الثابتة أو المتحركة))¹³. و تبعا لفكرة النشوء و الارتقاء في الأشياء و الموجودات، فقد ارتقى الشعر العربي و تطور الوصف فيه، من النزعة النقلية التي لطالما لازمتها في بدايته، ليكتسب نوعا من التجريد، إلا أن هذا التحول في الوصف لم يبعده كلياً عن الحسية و المادية التي ظلت مسيطرة على معظم صور و معاني الشعر العربي في العصر الجاهلي و بداية العصر الإسلامي. فقد بدأ الوصف النقلي التسجيلي يفقد مكانته في الشعر، و يتخلى على مواقعه، في مقابل تزايد نزعة جديدة أرقى قليلا منه، حيث اكتسب الشعراء مقدرة على الوصف المادي الذي يقوم على تشبيه المعاني المجردة و إلباسها شكلا ماديا لتقريبها من ذهن السامع. ((و ثمة النزعة المادية التي تختلف عن النزعة النقلية في أنها لا تقارن أو تشابه بين مشهد و آخر، بل بين فكرة، أو حالة نفسية، من جهة و مشهد حسي أو صورة مادية من جهة أخرى. و الصورة في هذا النوع من الوصف لا تستقيم على أسلوب منطقي حسي منظور، كالصورة النقلية، بل على وحدة التأثير النفسي، بين فكرة في الدهن و مشهد في الحواس))¹⁴. فقد أصبح الوصف يقوم على نقل ما هو معنوي، أو ما هو مدرك بالفكر و العقل إلى ما يدرك بالحواس، و هو وصف فيه شيء من الارتقاء و التطور عما كان حاصلا من ذي قبل، يناسب دوق العصر و مستوي حضارة أهله العرب و لغتهم التي دخلت في طور تهذيبها الأخير، حيث اكتسبت عناصر القوة و الجودة، و ثراء لفظيا و معنويا، فأصبحت لغة أدبية بامتياز فضلا عن كونها لغة الخطاب اليومي، يعبر بها العربي عن أغراضه و حاجاته. و من الأمثلة على هذا النوع من الوصف، نذكر ما جاء في شعر النابغة الذبياني في مديحه للملك النعمان بن المنذر، و وصفه إياه بالكرم إذ يقول¹⁵

الأمر الذي أكسب هذا الفن الصدارة و التفوق على وصف المشاركة، و أضحي متبوعا بعد أن كان تابعا، وقد حصل هذا الانقلاب بداية من القرن الخامس الهجري، بسبب جمال الطبيعة الأندلسية و سحر مناظرها و كثرة بساطتها و متنازاتها و وفرة مائها و نباتها، هذا من جهة و من جهة أخرى، ظهور طبقة من الشعراء الأندلسيين ذوي الموهبة الفذة و الخيال الخلاق خلال هذه الفترة، و جهم لوطنهم و تعلقهم به، أمثال ابن حمديس، و ابن خفاجة و ابن عمار... الذين تربعوا على عرش فن الوصف ليس في الشعر الأندلسي فحسب، بل و العالم الإسلامي ككل. و أصبح حين يذكر الوصف في الشعر، يراد به وصف الطبيعة بمختلف مظاهرها و تجلياتها دون غيرها من الموصوفات الأخرى.

و من هذه الحيثيات التي سبق عرضها ((فإن شعر الطبيعة في الأندلس يعتبر مرآة صادقة لطبيعة الأندلس و سحرها و جمالها، على أن شاعر الطبيعة ليس ككل شاعر، إنه رسام في نطاق شاعريته، و ليس كل شاعر رساما، إن المقطوعات الجميلة التي خلفها الشعراء الأندلسيون ليست في حقيقتها إلا لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال، زاهية الأصباغ – و لذلك – فهي تشد انتباه القارئ و تثير اهتمامه))²⁰. و في هذا السياق المعبر عن جمال الوصف في الشعر الأندلسي و البراعة التي أظهرها شعراء هذا الإقليم، يقول أبو بكر بن عمار الأندلسي²¹:

أَدْرِ الرَّجَاةَ فَالْنَّسِيمُ قَدْ انْبَرَى وَالنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ الْعَيْنَ
عَنِ الْكَرَى

وَالصُّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا

الْعَبْرَا

وَالرَّوْضُ كَالْحَسَنَاءِ كَسَاهُ زَهْرُهُ وَشَيْئًا وَقَلْدَهُ نَدَاهُ

جَوْهَرَا

3. الوصف في شعر الأندلسيين النازحين إلى البلاط الحفصي القرن السابع الهجري:

جاء وصف الطبيعة في شعر الأندلسيين النازحين إلى الإمارة الحفصية خلال القرن السابع الهجري، في شكل

الوصف النقلي و المادي جميعا، لأن الظاهرة المادية التي تشخص بشكلها العلمي المقرر، هي الظاهرة الأقل أهمية و جدوى¹⁷. و من الأمثلة الشعرية على هذا النوع من الوصف قول البحري يصف مقدم الربيع ببهجته و جمال منظره فيقول¹⁸:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا مِّنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ
أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدْ نَبَّهَ النَّيْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى أَوَائِلَ وَرَدًا كُنَّ بِالْأُمْسِ
نُومًا
يُقْتَفِيهَا بَرْدُ النَّدى فَكَأَنَّهُ يَبْتُ حَدِيثًا كَانَ قَبْلُ
مُنْمَنَمًا

((فإن النزعة النفسية تغلب على الوصف الوجداني، إذ يفيض بذات الشاعر على الأشياء، حتى تطالعا بأحداق و ملامح إنسانية تضحك و تبكي، تطرب و تشقى، تتناجى و تستنكي، تعاني وطأة الوجود و تغتبط به، فكأنها إنسان متكامل سوي، أو كأن الشاعر يصف ذاته من خلال الأشياء))¹⁹.

أما في الأندلس فنشأ الوصف مع نشأة الشعر هناك، في القرن الثاني الهجري، ولعل أول من كتب الشعر في الأندلس هم الفاتحون الأوائل، منذ عصر الولاية و ما أعقبه من نشأة الإمارة الأموية على يدي عبد الرحمن الداخل . صقر قريش . الذي وطد الملك لبني مروان في الجزيرة الخضراء، من خلال بعض المقطوعات الشعرية التي نسبت إليه. وقد أصبحت قرطبة و غيرها من الحواضر، مركز الحركة العلمية والأدبية في الأندلس. و من ذلك الزمن ما نفك الوصف في تطور ونمو، حتى ظهر بالصورة التي وجدناه عليها في شعر الأندلسيين النازحين عنها إلى الإمارة الحفصية.

لقد غدا الوصف في الشعر الأندلسي أكثر شيوعا و تداولاً، قياسا لما هو حاصل في مختلف الأقاليم العربية و الإسلامية الأخرى مشرقا و مغربا، فبعد أن كان محاكاة و تقليدا للوصف المشرقي، على غرار بقية الأغراض المختلفة للشعر، ازدهر الوصف في الشعر الأندلسي و تقدم خطوات غير مسبوقه،

الأبطال و غيرهم، فقد صرف البحث قصارى جهده لهذه الموصوفات الجامدة من: أزهار و رياض، و منتزهات، و من أشجار، و أنهار، و برك، و بحيرات، و من ثمار، و زروع و غلال، و محاصيل...

و من أهم مظاهر الطبيعة الصامتة التي نالت شغف الشعراء الأندلسيين، و فازت بقصب السبق لديهم، و حازت على إعجابهم و سيطرت على مشاعرهم و أفكارهم، نذكر وصف الأزهار و الورود و الرياحين، التي كانت تزدهم بها البساتين و الرياض، و تغص بها الدور و القصور في الأندلس و الإمارة الحفصية، فلطالما حركت هذه الأزهار و الورود خيال الشاعر و أيقظت قريحته المبدعة، فأقبل يصفها في شعره، و يعدد مناجي جمالها و نواحي سحرها، مظهرًا فتنته بها.

لقد ساهمت حياة الترف و قيم الحضارة التي نشأ في ظلها الشعراء الأندلسيون النازحون إلى البلاط الحفصي، في ميلهم إلى وصف الورود و الأزهار على اختلاف أنواعها و تعدد ألوانها، و برعوا فيها براعة غير مسبوقة، حيث صقلت الحياة الحضارية طباعهم و أرهفت مشاعرهم و أنمت دوقهم و إحساسهم بكل ما هو جميل، كما ألهمت قرائحهم، فانعكس كل ذلك في وصفهم للزهور و الورود المختلفة، فقد كانت البساتين عامرة بها، و استنبتها الأمراء في قصورهم التي ضمت لفيها من الأزهار و عديدا من الرياحين التي تحكي الربيع نضارة و بهجة، حتى أضحي أريجها يعبق مختلف الدور و القصور.

و من أكثر الشعراء وصفا للأزهار نجد ابن الأبار القضاعي البلنسي الذي فتن بجمال الزهور على كثرتها و اختلاف أنواعها و تنوع ألوانها و أسمائها، و قد أطنب في وصف الأزهار و أظهر تعلقه بجمالها و طيب نشرها، فأنشأ يقول²³ في وصف السوسن من البسيط

يَا حُسْنَهَا سَوْسَنَاتٍ أَطْلَعَتْ عَجَبًا مَدَاهِنًا مِنْ لُجَيْنٍ تَخْبَأُ
الدَّهَبَا

مقطوعات في أحيان كثيرة، و قلة من القصائد، و سيصرف هذا البحث قصارى جهده إلى وصف الطبيعة لدى ثلاثة شعراء هم: ابن الأبار، ابن سعيد، حازم القرطاجني، الذين أجادوا في وصف الطبيعة الصامتة، كالزهرات و الروضيات، و المائيات من أنهار و بحيرات و ينابيع... و الطبيعة الحية، كالخيول و الكلاب و الطيور... و الطبيعة المصنوعة، كالسيف و القلم و المشط و الشمعة و الدولاب... و رغم أن هؤلاء الشعراء لم يبلغوا في هذا الفن الخالص مصاف الفحول من شعراء الأندلس، إلا أنهم أجادوا و جددوا في وصفهم لعناصر الطبيعة بمختلف مظاهرها، و وشحوا شعرهم في هذا الغرض بلوحات وصفية تضمنت مشاهد الطبيعة الأنيقة، مازجين بينها و بين مشاعرهم، مع شيء غير قليل من الوصف المادي، و الزخرف اللفظي الذي يطبع شعرهم.

1.3. وصف الطبيعة الصامتة:

اعتني الشعر الأندلسي بوصف مظاهر الطبيعة عناية فائقة، و تنافس الشعراء في رسم لوحات فنية زاهية الألوان، و قد تأنقوا في تصوير ما وقعت عليه عيونهم من مناظر خلابة و مشاهد أخاذة، و كان الأندلسيون الذين هاجروا نحو الإمارة الحفصية في القرن السابع الهجري، و لاسيما الأدباء و الشعراء و الكتاب، قد أخذوا بحظ وافر في هذا المضمار، فأقبلوا على وصف الطبيعة في أشعارهم بمختلف جوانبها و مجالاتها إقبال النحل على الزهر، و نالت الطبيعة الجامدة أو الصامتة عنايتهم و إعجابهم من خلال ما أبدعوه في محاربا من قصائد و مقطعات تنم عن ولعهم بها و إعجابهم بمختلف جوانبها.

و ((يراد بالطبيعة الصامتة، الظواهر الطبيعية التي في هذا الكون بأرضه و سمائه، فهي على هذا تشمل الرياض و الأزهار و الثمار و الأنهار، كما تشمل أجزاء السماء و أفلاكها و أمطارها و سحبها و برقها و رعداها...))²². إن هذه الموصوفات كلها تنتهي إلى عالم الأشياء المقابل لعالمي الأفكار و الأشخاص، ولذلك لم نتطرق لوصف المرأة و

لَمَّا سَقَاهَا الْحَيَا مَا شَاءَ مُنْتَبِهًا لَمْ تَعُدْ أَنْ مَرَّقَتْ أَثْوَابَهَا
طَرَبًا

يصف الشاعر زهرة السوسن حال تفتحها و تفتق أكمامها، معبرا عن إعجابه بحسنها و فتنته برونقها، فهي هي بأوراقها البيضاء و قد أحاطت بقرص أصفر اللون، و أضحت - في هذه الحال - تشبه الفضة صفاء و بياضا، و قد تضمن وسطها ما يماثل الذهب اصفرارا و لمعانا، و قد زاد في حسننها بعد تفتحها، سقي السحاب الممطر لها بالقدر الذي سمحت به مشيئة الله عز و جل، فكان ذلك سببا في نموها و نضجها، حتى أضحت كأنها حسناء أصابها الطرب من فرط الفرح فهي في حركة عارمة، و قد كشفت -جرا ذلك - عن صدرها و مفاتها، و عملت الاستعارة التصريحية عملها في تشخيص زهرة السوسن، و تصويرها في هيئة فتاة حسناء تفرح إلى درجة الطرب، فتمزق ملابسها دون شعور منها، فتتكشف محاسن صفاتها، و تظهر مواطن فتنها. لقد تمكن ابن الأبار في هذه اللوحة الشعرية من رسم مشهد طبيعي جميل، جعل فيه ما هو صامت و جامد من مظاهر الطبيعة، ناطقا و متحركا تشيع فيه البهجة و تدب فيه الحياة، بفضل مهارته في الوصف و قدرته على التصوير.

و قال حازم²⁴ يصف وردا أبيض من الطويل

وَمُبَيَّضَةُ الْأَثْوَابِ تُدْعَى بِوَرْدَةٍ تَقِلُّ لَهَا الْأَشْبَاهُ عِنْدَ

الْتِمَاسِهَا

أَنَافَتْ عَلَى سَاقٍ لِنَشْرَبٍ عِنْدَمَا أَشَارَتْ لَهَا كَفُ الْبُرُوقِ

بِكَاسِهَا

كَجَارِيَةٍ قَامَتْ بِبَيْضِ غُلَانِلٍ مُرْقَعَةٍ أَذْيَالَهَا حَوْلَ

رَاسِهَا

أعجب حازم القرطاجي بمنظر وردة بيضاء جميلة، فوصفها بالفرادة، فهي بلا ند و لا نظير بين الورد، فهي قد انتصبت على ساق طويلة لتستقبل الندى و المطر في نشوة و نشاط، كحال المنتشي بشرب الخمر المعتقد بعد أن فارقتها طويلا، كما يصف الورد في رونقها و جمالها بجارية حسناء، و قد لبست ثوبا طويلا أبيض اللون، و قامت ترفل فيه و تجر

أدياها، فقد رفعته إلى الأعلى كي لا يعيق حركتها على عادة الجـواري و الحسنات، مع ما يصاحب هذه الحركة المتخيلة من إظهار لمواطن الفتنة و مواضع الجمال، و هي موازنة بين حال الزهرة الطبيعية و حسن المرأة المتخيلة على الأقل. و رغبة من الشاعر في إبراز مواطن الحسن و مواضع الجمال في المشهد الطبيعي المتمثل في الورد الأبيض من جهة، و في الصورة المتخيلة للمرأة الحسنة من جهة أخرى، فقد استعان حازم بعناصر بيانية متعددة لتحقيق مبتغاه، و إيصال رسالته الفنية، و لتحقيق ذلك؛ لجأ إلى توظيف التورية في قوله: تدعى وردة في بداية المقطوعة، فقد يتصور السامع أن الأمر يتعلق بفتاة تسمى وردة، إضافة إلى المعنى الأول و هو الورد الطبيعية، كما تحضر الاستعارة في هذا الوصف في قوله: لتشرب أو في قوله: كف البروق، كما يحضر - أيضا - التشبيه في قوله: كجارية. و قد دأب الشعراء العرب في عصر الشاعر أو قبل عصره على استعمال مثل هذه الأوصاف في رسم مشاهد جمال الطبيعة و مزجها بمحاسن المرأة و بعناصر فتنها، فحازم ينهل من هذا الإرث الفني الثري الذي يغترف من معينه و ينتسب إليه.

و قال ابن سعيد²⁵ يصف نوار الكتان

أَنْظُرْ إِلَى النَّهْرِ وَالْكَتَّانِ يَرْمُقُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ بِأَجْفَانٍ لَهَا

حَدَقٌ

رَأَتْهُ سَيْفًا عَلَيْهِ لَصَبَا شَطَبٍ فَقَابَلَتْهُ بِأَحْدَاقٍ

بِهَا أَرْقُ

وَأَصْبَحَتْ فِي يَدِ الْأَزْوَاجِ تَنْسِجُهَا حَتَّى غَدَتْ حَلَقًا مِنْ

فَوْقِهَا حَلَقُ

يصف ابن سعيد مشهدا طبيعيا يتمثل في شجر الكتان و قد بدا نوره و أزهاره كأنها عيون الحسان فاترة الطرف وهي صفة مستحسنة في عيني الحسنة، و قد أحاطت هذه الأشجار بالنهر من جانبيه، كما بدا النهر كأنه سيف يتقلده أحد الأبطال، و قد كثرت هذه الأحداق الجميلة فشكلت دوائر و أطر بعضها فوق بعض، و هو مشهد في منتهى الحسن و الجمال، يتراءى للناظر صباحا أو في المساء، و قد لعب

الثمار بمختلف أصنافها في بقية الأغراض الشعرية الأخرى، و بالرغم من هذه القلة المسجلة في غرض الوصف، لم نعدم وجود مقطوعات تشير إلى بعض الثمار، و من ذلك ما ذكره ابن الأبار في وصف ثمرة العناب مشبها بها أطراف أصابع الحسناء، فيقول²⁶ من الخفيف

نَاوَلْتَنِي الْعُنَابُ أَنْمُلُ خُودِي خَضَبَهَا بِخُمْرَةِ الْعُنَابِ
فَتَحَيَّرْتُ فِيهَا ثُمَّ أَهْوَيْتُ بِحُكْمِ الْهَوَى لَذَاتِ الْخُضَابِ
صَبْوَةً لَا أَمِيلُ إِلَّا إِلَيْهَا رَبِّ طَبْعِي يَكُونُ طَوَعَ النَّصَابِ

و يصف الشاعر شجر العناب، مشبها ثماره الحمراء القرمزية، برؤوس أصابع الفتاة الحسناء المخضوبة بالحناء، فاحترار الشاعر في أمره هل يمسك ثمار العناب أم يد هذه الفتاة الحسناء، لقرب الشبه بينهما، لكن حيرة الشاعر لم تدم طويلا فسرعان ما حسم اختياره، فرغب عن العناب، و أقبل على ذات الخضاب التي جبل طبعه على هواها و التقرب منها، فهو لا يستطيع أن يتحكم في عواطفه في مثل هذا الموقف بل إن حسب النساء و التودد لهن مسألة فطرية في سائر البشر، فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها عن الرسول صلى الله عليه و سلم، أن المرأة فتنة تأخذ بلب الرجل الحازم. و العناب من الأشجار الشوكية المثمرة ذات أوراق صغيرة و ثمار حمراء مستديرة الشكل صغيرة الحجم حلوة المذاق، ففي هذه القطعة الشعرية نلاحظ امتزاج عناصر الطبيعة الجامدة ممثلة في ثمار شجرة العناب، بمحاسن المرة المتخيلة، فقد نجح الشاعر ابن الأبار في رسم لوحة حسية نابضة بالحركة و اللون، وهو وصف وجداني يشترك فيه الحسي و المعنوي و يتمازجان.

و قال ابن سعيد²⁷ بتونس يصف التين من السريع

لَا مَرَحَبًا بِالتَّيْنِ لَمَّا بَدَا يَسْحَبُ مِنْ لَيْلٍ عَلَيْهِ الْوَشَاخُ
مُمَرَّقُ الْجَلْبَابِ يَحْكِي ضُحَى هَامَةً زَنْجِي عَلَمًا جَرَاخُ
وَإِنْ تُصَحِّفْهُ فَلَا حَبْدًا مَا قَدْ أَتَى تُصَحِّفُهُ بِانْتِرَاخُ

يصف ابن سعيد التين الأسود مشبها له بالليل مرة و برأس زنجي جريح وقت الضحى، مُظهرًا بغضه له و انزعاجه منه، و هي صورة مستغربة من الشاعر، إذ تحمل بين طياتها

التشخيص دورا فعالا في إبراز جمال هذا المشهد و تحسين صورته التي تخطف الأبصار و تخلب الألباب، مع إضفاء الحيوية و الحركة عليه، كما هيمن على هذا التصوير الفني عنصر الوصف المادي و الوجداني معا، في تلاحم و تعالق يشيان بنفسية الشاعر المنفعلة بفتنة مظاهر الطبيعة و جاذبيتها، كما وفرت العناصر البلاغية و في مقدمتها الاستعارة المكنية و التشبيه خيالا حركيا بالغ التأثير.

لقد جاء وصف الورود و الأزهار في شعر الأندلسيين النازحين إلى البلاط الحفصي خلال القرن السابع الهجري في أعقاب سقوط جل مدنها و حصونها في يد الإسبان الصليبيين، في شكل مقطوعات في أحايين كثيرة، و لم ترد لهم في هذا الباب قصائد طويلة إلا في القليل النادر، مثل قصيدة ابن الأبار في وصف البستان المسمى (أبو فهر) برأس الطابية الذي أنشأه السلطان المستنصر الحفصي لتزينة حريمه و جواريه، و - كذلك - القصيدتان المقصورة و الجيمية لحازم القرطاجي، و ما سوى ذلك فهي مقطوعات قصيرة وصف فيها هؤلاء الشعراء بعض الأزهار و الورود: كالسوسن، و الخيري، و الورد الأبيض، و الياسمين، و زهر النارنج، و الجلنار، و شقائق النعمان، و زهر الكتان، و بعض النباتات العطرية، و رغم أنهم لم يبلغوا في هذا الفن الأندلسي الخالص مصاف الفحول من شعراء الأندلس، إلا أنهم أجادوا في زهرياتهم، و وشحوا شعرهم بهذه القطع الوصفية لمشاهد الطبيعة الأنيقة، مازجين بينها و بين أنفسهم و مشاعرهم، مع شيء غير قليل من الوصف المادي، و الزخرف اللفظي الذي ينسجم مع روح هذا العصر و سماته الفنية.

لم نعتز في الشعر المندرج تحت غرض الوصف لدى الأندلسيين النازحين إلى البلاط الحفصي، إلا على مقطوعات قليلة في وصف ثمار الأشجار و النباتات رغم كثرة البساتين و تنوع الأشجار المثمرة في البيئتين الأندلسية و الحفصية، فالغلال و المحاصيل الزراعية كانت و لا تزال من أهم مصادر العيش و الرزق، لكن هذا لا يعني أن هؤلاء الشعراء قد ضربوا صفحا عن ذكر الثمار و المحاصيل الزراعية، فقد وصفوا

حضر الماء بكثرة في قصائد ابن الأبار و في مقطعاته، حيث وصف الأنهار والبرك والبحيرات، كما وصف الغدران و المنابع، فأظهر ما فيها من جمال و نضارة تبهج النفس و تجلب الأنس، و من ذلك قوله في وصف نهر صفا ماؤه و سكنت صفحته، فانعكس عليها أديم السماء كأنها مرآة، و شف قعره عن الحجارة بصورة جلية للناظرين، كما أن هذا النهر في لطفه و رفته و سلاسة جريان مائه، اللجين الخالصة شديدة البياض، إن هذا الإطار الطبيعي الذي حدد معالمه و صفاته الشاعر، كان سببا في استدعاء ذكريات الشاعر في مرحلة شبابه حيث الغزل البسام و الأمانى الهاتفة و المشاعر المنسكبة، و هي صورة تضافرت فيها عناصر الطبيعة الجامدة، اجتمع فيها اللون و الحركة و الحيوية في تناسق و انسجام، يثي بمقدرة الشاعر على التصوير الفني و البراعة اللغوية.

و قال ابن سعيد²⁹ يصف نهر النيل و المراكب فيه عند الفسطاط

نَزَلْنَا مِنَ الْفُسْطَاطِ أَحْسَنَ مَنْزِلٍ بِحَيْثُ امْتِدَادُ النَّيْلِ قَدْ
دَارَ كَالْعُقْدِ
وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ الْمَزَاكِبُ سَحْرَةً كَسِرْبِ الْقَطَا أَضْحَى
يَرِفُّ عَلَى الْوَرْدِ

2.3. وصف الطبيعة الحية:

أقبل الشعراء الأندلسيون النازحون إلى البلاط الحفصي في القرن السابع الهجري على وصف مظاهر الطبيعة الحية بشغف بدرجات متفاوتة من شاعر لآخر، فلم نعث في ديوان ابن الأبار في غرض الوصف إلا على قطعة شعرية واحدة هي وصف حمامة مبلولة، أما حازم القرطاجني فقد وصف الخيل في قطعة شعرية واحدة، أما ابن سعيد المغربي فاهتم بالخيال أكثر من بقية أقرانه و زملائه الأندلسيين من نزلاء البلاط الحفصي، لكن على العموم كان نصيب الطبيعة الحية قليلا في شعر الوصف لدى هؤلاء الشعراء، و هذه القلة التي لمستها تدعو للاستغراب و تثير التساؤل.

عنصرية و تميزا، فلم يعرف عن المسلمين التفرقة بين البشر بسبب اللون أو اللغة أو العرق، عكس ما يستشف من هذه القطعة الشعرية، كما أن الله - عز و جل قد أقسم بالتين في القرآن الكريم، و من جهة أخرى فوصف ابن سعيد للتين دليل على كثرة وجود هذه الشجرة بتونس، و أن هذا الوصف يختلط فيه المادي بالمعنوي بالوجداني، ويحضر فيه اللون و الحركة معا، في لوحة شعرية تنم عن نفسية الشاعر و نظرتة للحياة. و لعل هجاء الشاعر للتين راجع إلى تأثيره بتفسير رؤية أكل التين الأسود في المنام عند ابن سريين، إذ يشير إلى الحزن و النكد و النزول من المنزللة الأعلى إلى الحضيض في المجتمع.

و احتفى الشعر العربي عامة و الأندلسي خاصة بالمائيات بمختلف مصادرها و أنواعها، و أكثر الشعراء الأندلسيون من وصف الأنهار و البرك و البحيرات و الينابيع و الشلالات و الجداول و الغدران التي حبا الله - عز و جل - الأندلس بها، فتنافس الشعراء على وصف هذه المصادر المائية و التألق في تصويرها في قصائدهم و مقطعاتهم، و المطلع على ما أبدعته قرائح الشعراء الأندلسيين النازحين إلى البلاط الحفصي القرن السابع الهجري يلمس حرص هؤلاء الشعراء على وصف المائيات بشكل لافت أكثر من بقية عناصر الطبيعة الأخرى، و لم تكن البيئة الحفصية - بلاد المغرب الأدنى و الأوسط - أقل من نظيرتها الأندلسية في هذا المجال الطبيعي، فازداد إقبال الأندلسيين على وصف المائيات بمختلف مظاهرها، فرسموا لوحات و مشاهد لا تزال خالدة في سجل الفن الشعري إلى يوم الناس هذا.

و من نماذج وصف الأنهار الجارية في شعر الأندلسيين النازحين إلى الإمارة الحفصية في القرن السابع الهجري، قول ابن الأبار²⁸ يصف نهرا من مجزوء الكامل

لِلَّهِ نَهْرٌ كَالْحُبَابِ تَرْقِي شُهُ سَامِي كَالْحَبَابِ
يَصِفُ السَّمَاءَ صَفَاؤُهُ فَحَصَاهُ لَيْسَ بِذِي اخْتِجَابِ
وَكَاَنَّمَا هُوَ رَقَّةٌ مِنْ خَالِصِ الْوَرَقِ الْمُنَابِ

الأهلين و الأولاد و وضعت لها أنسابا حتى لا تتجهن أو تفقد أصالتها مثل العرب))³¹. و جاء الاسلام فأعلى من شأن الخيل و جعلها رديفا للخير في الكثير من آيات القرآن الكريم و أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم. كما تعلق بها الشعراء فوصفوها في شعرهم بصورة تثير الإعجاب و الاعتزاز، و لم يخرج الشعراء الأندلسيون النازحون إلى البلاط الحفصي خلال القرن السابع الهجري عن هذا السياق، فقد أبدعت قريحتهم الشعرية لوحات فنية خالدة في وصف الخيل، و ذكر نوعتها و أحوالها و مختلف ألوانها و سرعتها التي تجعل بقية الحيوانات كأنها مقيدة، أو كما وصفها الشعر الجاهلي بقيد الأوابد، و كلها نعوت تنم عن حيم للخيل و شغفهم بها، و من ذلك نجد ابن سعيد يصف فرسا أعر أكحل اللحية فيقول³²

وَأَجْرَدَ تَبْرِيٍّ أَثَرْتُ بِهِ الثَّرَى وَلِفَجْرِي خَصِرِ الظَّلَامِ

وَشَاخُ

لَهُ لَوْنُ ذِي عَشْقِي وَحُسْنُ مُعَشَقِي لِنَلِكٍ فِيهِ ذَلَّةٌ وَ

مِرَاحُ

عَجِبْتُ لَهُ وَهُوَ الْأَصِيلُ، بِعُزْفِهِ ظَلَامٌ وَيِّنَ النَّاطِرِينَ

صَبَاحُ

يُقِيدُ طَيْرَ اللَّخْظِ وَالْوَحْشَ عِنْدَمَا يَطِيرُ بِهِ نَحْوَ النَّجَاحِ

جَنَاحُ

يصف ابن سعيد المغربي حصانه، فيقول انه قليل الشعر أصفر ذهبي سريع الجري رأسه أسود مشوب ببياض، كما أن بعض أجزاء جسمه فيه اصفرار ممزوج بحمرة، ممشوق القوام حسن المشية ولوع باللعب، و قد تعجب الشاعر منه فذيله أسود اللون و في جبينه غرة بيضاء، كما أن عدوه موصوف بالسرعة حتى لكان الطير و الوحش مقيدة لا فكاك لها منه، بل قد تخاله طائرا جارحا. و قد حشد جملة من التشبيهات و الاستعارات لتصوير الفرس بدقة و براعة مازجا مشاعره و عواطفه بين ثناياها متكأ على ارث شعري ضارب في القدم يعود إلى العصر الجاهلي، فكما أن الجواد أصيل صافي السلالة، كذلك شعر ابن سعيد ممتد في الزمان متصل بشعر أسلافه من الشعراء الجاهليين.

لم يحتف ابن الأبار بوصف الطبيعة الحية – الحيوان – احتفائه بالطبيعة الصامتة، فلم نعثر في ديوانه إلا على قطعة شعرية في وصف حمامة مبلولة بعد تعرضها للمطر، و هذه القلة في وصف مظاهر الطبيعة الحية في ديوان الشاعر تسترعي الانتباه و تدعو إلى التساؤل، ذلك أن الحيوان طائرا كان أو ماشيا أو زاحفا؛ جزء من حياة الناس اليومية و شريك لهم فيها، فلماذا لم ينل حظه من الوصف في شعر ابن الأبار على عكس بقية عناصر الطبيعة الأخرى. و من النماذج الشعرية القليلة في وصف ابن الأبار للطيور قوله³⁰ يصف حمامة مبلولة من السريع

لَمَّا بَكَتْ مِنْ غَيْرِ دُمُعٍ جَرَى أَعَارَهَا أَدْمَعَةُ الْمُزْنِ

فَكَلَّمَا اهْتَزَّ جَنَاحُ لَهَا نَظَمَ مَا يَنْثُرُهُ الْمُزْنُ

يصف الشاعر هذه الحمامة التي رق لحالها بعد أن أصابها البلل بفعل المطر، حيث شبه قطرات الماء المتناثرة من الحمامة عند تحريك جناحها كأنها دموع مستعارة من السحب، فالحمام لا يبكي و لا تصدر عنه الدموع، بل إن هذه المظاهر من بكاء و دموع و حزن صفات إنسانية خالصة، فقد شبه الشاعر الحمامة المبلولة و هي تنفض عنها قطرات المطر بجارية حزينة يتطاير من عينها الدمع كما تتطاير قطرات الماء من السحب. فالصورة في هذه القطعة الشعرية مركبة من عناصر ثلاثة هي الحمامة المبلولة من جهة، و السحاب الممطر من جهة أخرى، و الفتاة المتخيلة حال الحزن و البكاء من جهة ثالثة.

احتلت الخيل في وجدان العرب مكان الصدارة، و كانت رفيقهم في الجِلِّ و الترحال و في الحرب و السلم، و لعلنا لا نبالغ في القول أن الخيل لم يحتفى بها في أي أمة من الأمم و لم تحظى بالتكريم و التجلة أكثر مما حظيت به عند العرب، فقد قدموها في الكثير من الأحيان على الأهل و الولد، و حافظوا على أصالتها و صون أنسابها بالدرجة نفسها التي كان حفاظهم على أصولهم و أنسابهم، و إلى هذا المعنى يشير أحد الكتاب بقوله ((احتلت مكانة التجلة و الاحترام، و ولم يثبت أن أمة اعترفت للخيل بالفضل، و خصتها بالتكريم و أثرتها على

و قال ابن سعيد³³ يصف كلبا من الوافر

وَأَذْهَمَ دُونَ حُلِيِّ ظَلِّ حَالِي كَأَنَّ لَيْلًا يَقْلِدُهُ صَبَاحُ
يَطِيرُ وَمَا لَهُ رِيَشٌ وَلَكِنْ مَتَى يَهْفُوفًا زَيْعَهُ جَنَاحُ
تَكَلُّ الطَّيْرِ مَهْمَا نَارَعَتْهُ وَتَحْسُدُهُ إِذَا مَرَّقَ الرِّينَاحُ

حضر الكلب في شعر ابن سعيد، فوصفه في هذه القطعة الشعرية، فلونه يميل إلى السواد، وهو سريع الحركة، كأنه طائر بلا ريش ولا أجنحة، بل أن سرعته الفائقة لا تجاريها الطير، فلا قدرة لها عن منافسته، يخترق الريح فلا تستطيع أن تقيد حركته، فلكلب معروف بسرعة عدوه وخفة حركته ووفائه لصاحبه، مشهود له في مجال الصيد والحراسة. وفي هذه القطعة الشعرية أيضا صورة مشرقة لهذا الحيوان الأليف، المرافق للإنسان في حله وترحاله، ملازما له في حربه وسلمه. وقد امتزج في هذا المشهد المجسد للطبيعة الحية، عنصرا اللون والحركة بصورة جليلة نابضة بالحياة.

3.3. وصف الطبيعة المصنوعة:

نالت الطبيعة المصنوعة حظها من الوصف في شعر الأندلسيين النازحين إلى البلاط الحفصي على غرار ما نالته بقية موضوعات الوصف الأخرى كوصف الطبيعة الصامتة والطبيعة الحية والطبيعة العلوية، ونعني بالطبيعة المصنوعة كل ما أنجزه الإنسان من مظاهر الحضارة المختلفة من قصور وجسور ودواليب لاستخراج الماء من الأنهار وسفن ومراكب وأدوات الحرث ووسائل الزراعة، بالإضافة إلى الورق والبراق والمشط والمراة والشمعدان والسيف والرمح وغيرها من المصنوعات التي تفننت عبقرية الإنسان في إنجازها، وقد وصف الأندلسيون المنتقلون إلى البلاط الحفصي هذه المصنوعات في قصائد ومقطعات شعرية متفاوتة الكم والجودة من شاعر لآخر، ومن ذلك نجد ابن الأبار الذي أكثر في وصف المصنوعات وأجاد في هذا الباب وأبدع لوحات شعرية.

و من أمثلة ذلك قول ابن الأبار³⁴ في وصف شمعة من الطويل

وَصَفْرَاءُ فِي لَوْنِ الْمُجَبِّ وَحَالِهِ تَقُومُ بِأَنْسِ النَّفْسِ فِي
وَحْشَةِ الدُّجَى

إِذَا اضْطَرَمَّتْ نِيرَانُهَا إِنْهَلَّ دَمْعُهَا فَلَا فَرْقَ إِلَّا أَنَّهَا تَحْمَدُ
الشَّجَا

نُعَذِّبُهَا عَمْدًا لِتَنْتَعِمَ أَنْفُسًا وَرَبِّ نَعِيمٍ مِنَ الْعَذَابِ
تَنْتَجَا

و يصف الشاعر شمعة صفراء، في شكل لغز اعتاد تضمينه بعض رسائله إلى أصدقائه، مشبها لونها بحال المحب حيث يعتريه الشحوب من فرط وجده وشدة هيامه، فالشمعة تأنس النفس وتذهب الوحشة في الظلام، كما يصف ذوبانها عند اشتعالها بالدموع الدالة على الحزن، إلا أن المفارقة الحاصلة تتمثل في كون بكاءها وحزنها مرغوب للنفس، و يواصل الشاعر في سرد المفارقات الواقعة بين حال الشمعة وحال النفس، فعذاب الشمعة يجلب النعيم والسرور، وقد كثر في عصر الشاعر مثل هذا الشعر الذي يقوم على التعمية والأحاجي والألغاز، وهي سمة تميز عصر الانحطاط والضعف الذي آذن بقدومه بداية القرن السابع الهجري، وأخذت مظاهره تزداد وتستشري في مختلف جوانب الحياة الفكرية والفنية.

و قال ابن الأبار³⁵ في وصف مشط من الرمل

لَا يَضَعُ مَيِّ لَوْنِي عِنْدَكُمْ رَبِّ لَيْلٍ فَضَلَ الْيَوْمَ وَزَادَا
شَعْرُ الشَّعْرِ بِكُثْمَانِي الْهَوَى فِدَعَانِي دُونَ أَضْدَادِي وَنَادَى
وَلُزُومِي الْفَرْعَ وَفِي أَدْبِي فَخُذُوا عَنِّي أَصْلًا مُسْتَفَادَا

يصف الشاعر مشطا أسود اللون متحدثا بلسانه، فيذكر أن لونه الأسود لا يقلل من قيمته، بل ربما كان الليل الأشد ظلمة أرفع قدرا ومنزلة من النهار المشرق، إن شعر الحسناء الأسود لا يرى بالليل ولهذا تفضله على بقية الأمشاط الأخرى؛ إذ لا يفضح أمرها عند اللقاء، بل يكتم هواها وحبا، فلهذا السبب فهو ملازم لصفاتها كملزمة الفرع للأصل في القياس حسب القاعدة الفقهية، فالتوافق قائم بين الخادم (المشط) والمخدوم (شعر المرأة). وتتضمن هذه القطعة الشعرية فنونا بلاغية كثيرة ومتنوعة منها: التورية في

يصف ابن سعيد الدواليب المنتشرة على ضفتي نهر مدينة حماة بالشام، ويدعوا لها بالحفظ والحماية لجمال منظرها و براعة صناعتها، فهي جديرة بأن تطيل الأذان الاستماع لصوت المياه المتدفقة منها، و خليقة بأن تحبس العيون للنظر إليها، و الأفهام للتأمل و التفكير في دقة صناعتها و حكمة صانعها. فقد أعجب الشاعر بهذه الدواليب إلى درجة الهيام، فترك التعقل و أرحى لعواطفه و رغباته العنان فراح معربدا حولها منتشيا باللهو في أحضانها. و تشترك في هذا المشهد الوصفي مختلف الحواس و الملكات في تكامل يشي ببراعة الشاعر و جودة صوره و معانيه و قدرته على مزج المادي بالمعنوي و ربط ما هو فكري بما هو حسي في تناغم كامل و تفاعل تام.

4. خاتمة:

إن ما يمكن تسجيله في موضوع الوصف، أنه فن أصيل و ممتد الجذور في الشعر العربي منذ نشأته الأولى، فقد بدأ الوصف في شعر الجاهليين حسيا، يعتني بنقل عناصر الطبيعة و مختلف الأشياء بأمانة و مطابقة كاملة للواقع، بل أن أوائل النقاد العرب ألحوا على ضرورة المطابقة و النقلية في الوصف، و رأوا فيها علامة للجودة الشعرية، إلا أن هذا الطابع قد تغير في العصور اللاحقة للعصر الجاهلي بتأثير من التغير الحاصل في حياة العرب، و انتقالهم من البداوة إلى الحضارة، و خاصة في العصر العباسي، فقد اكتسب شعر الوصف شيئا من عناصر التجديد سواء في موضوعاته أو في أشكاله الفنية، و أصبح الوصف ممتزا بنفسية الشاعر ملتبسا بشعوره و وجدانه، و تحول من مجرد تصوير الأشياء كما هي في عالمها الواقعي، إلى استيعابها و إعادة إنتاجها وفق رؤية فنية، قادرة على إحداث التأثير في وجدان المتلقي.

توسع الوصف في الأندلس أكثر من أي بيئة أخرى، بسبب سحر الطبيعة الأندلسية و تنوع مناظرها، من حدائق و بساتين و منتزهات و برك و أنهار، فأقبل شعراء الأندلس على هذه الطبيعة الساحرة فوصفوها في أشعارهم - قصائد و

قول الشاعر (و لزومي الفرع و في أدبي) فالمعنى الظاهر هو شعر المرأة بينما المعنى المضمهر المقصود هو الفرع المقابل للأصل في عرف الفقهاء، كما نلمس تعريضا خفيا بحاجة الشاعر و رغباته، كما استعمل الشاعر المشط كمعادل موضوعي لذاته، فكأن الشاعر يحدثنا عن نفسه و عواطفه على لسان المشط، فالقطعة الشعرية تنحو منحنى الرمز و الإشارة.

و قال ابن الأبار³⁶ يصف سيفا في غمده من البسيط
يَا حَامِلًا فِي قِمَاطِ الْغِمْدِ مُكْتَمِلًا مِّنَ الظُّلِيِّ نِيرًا كَالنَّجْمِ فِي
الظُّلُمِ
لَوْلَمْ يَكُنْ كَالْوَلِيدِ الطِّفْلِ فِي صَغَرٍ مَا أُوضِعُوهُ دَمَ الْأَبْطَالِ
وَالْهَمَمِ

و يصف ابن الأبار في هذه القطعة الشعرية سيفا في غمده له منزلة سامية في نفس حامله، فقد ألبسه أجود ما لديه من القماش المطرز و الجلد الموشى، كأنه صبي حديث الولادة محاطا بالرعاية، أما حده فمن المعدن الصافي و المنقى من كل شائبة حتى ليبدو كالنجم في اللمعان و التألق، فهو في نظر حامله بمنزلة الوليد الصغير في أهله، كما أن السيف لا يهان أو يدنس بل مكانه الطبيعي هامات الأبطال و دماء الكماة. و هذا وصف للطبيعة المصنوعة و لأحد أهم الأسلحة القديمة و أبرز أدوات القتال التي تحلى بها الأبطال و تزين بحملها القادة و الأمراء، فالسيف عنوان الشجاعة، و حده فاصلا بين الجد و اللعب و الحقيقة و الزيف.

و قال ابن سعيد³⁷ يصف دواليب استخراج مياه الأنهار بمدينة حماة

حَمَى اللّهُ مِنْ شَطِيٍّ حَمَاةٍ مَّنَاطِرًا وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَ
الْفِكْرَ وَالطَّرْفَا
تَغَيَّ حَمَامٌ، أَوْ تَمِيلُ حَمَائِلٌ وَتَزْهَى مَبَانٍ تَمْنَحُ
الْوَاصِفَ وَصَفًا
يُلُومُونَ أَنَّ أَغْصِي النَّصُونَ وَالنَّهْيَ بِهَا، وَأَطْبُعُ الْكَأْسَ وَ
اللَّهُوَ وَالْقَصْفَا

- مقطعات- و برعوا في ذلك حتى أضى وصف الطبيعة في الشعر خاصية أندلسية، و ازداد هذا التميز ابتداء من القرن الخامس وصولاً إلى القرن السابع الهجريين، بظهور نخبة من الشعراء الفحول الأندلسيين. و تنوعت موضوعات وصف الطبيعة في شعر الأندلسيين النازحين إلى البلاط الحفصي، و توزعت على موضوعات أساسية هي:
- و صف الطبيعة الصامته و تسمى كذلك بالطبيعة الجامدة، مثل وصف الزهريات سواء تعلق الأمر بوصف الأزهار بصورة فردية أو وصف الحقائق و الرياض و البساتين التي تضم شتى أنواع الورود و الرياحين، وقد كان ابن الأبار الأكثر حظاً في هذا المجال، مع مشاركة بعض الشعراء له في وصف الزهريات مثل حازم القرطاجني و ابن سعيد الأندلسي. ويأتي وصف المائيات في المقام الثاني، حيث أكثر الشعراء من وصف الجداول و الأنهار و البرك و البحيرات بسبب كثرتها في البيئة الأندلسية خاصة، و برع في هذا المضمون ابن الأبار البلنسي و حازم القرطاجني و ابن سعيد الأندلسي. أما وصف الشجريات و الثمرات فكانت قليلة الحظ، فلم نسجل إلا عدداً قليلاً من المقطوعات الشعرية في هذا اللون من شعر الطبيعة النباتية.
- و كان وصف الطبيعة الحية و نعني بها وصف الحيوان سواء أكان طائراً أو ماشياً أو زاحفاً، و ما يجدر التنبيه إليه هو قلة النماذج الشعرية في هذا المجال، فلم نعثر إلا على مقطوعات قليلة توزعت بين وصف الطيور و وصف الخيل، و وصف الكلب، حيث وصف ابن الأبار حمامة مبلولة، و وصف ابن سعيد الخيل في قطعتين شعريتين، و وصف حازم القرطاجني الخيل في قطعة واحدة، و هذا أمر مستغرب بسبب كثرة الحيوان في البيئتين الأندلسية و الحفصية، و صلته القوية بالإنسان من جوانب كثيرة.
- المصادر والمراجع**
- 1- ابن الأبار القضاعي: الديوان، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1985.
 - 2- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحددين، تونس، ط1، 1986.
 - 3- الباحثري: الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط3، دت.
 - 4- حازم القرطاجني: الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1964.
 - 5- حاوي إيليا: فن الوصف و تطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980.
 - 6- خالص صلاح: محمد بن عمار الأندلسي، مطبعة الهدى، بغداد، ط1، 1957.
 - 7- الخطيب علي أحمد: فن الوصف في الشعر الجاهلي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2004.
 - 8- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تحقيق صلاح الدين الهواري، و مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996.
 - 9- الزوزني: شرح المعلقات السبع، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004.
 - 10- ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982.
 - 11- عبير عبد الصادق محمد بدوي: من روائع الأدب الأندلسي، دار النشر الدولي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2013.
 - 12- العجيمي محمد الناصر: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2003.
 - 13- العسكري أبوهلال: الصناعتين، تحقيق علي البجاوي، محمد أبو إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1952.
 - 14- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.
 - 15- قناوي عبد العظيم علي: الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر، دت، دط.
 - 16- القيسي نوري حمودي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الارشاد، العراق، دط، 1966.
 - 17- أحمد لمقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1988.
 - 18- النابغة الدبباني: الديوان، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1996.
 - 19- نبيل رشاد نوفل: العلاقات التصويرية بين الشعر العربي و الفن الإسلامي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1993.

20- نجم م

¹هوامش البحث

- ¹- علي أحمد الخطيب: فن الوصف في الشعر الجاهلي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2004، ص10.
- ²- ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص16.
- ³- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ص62.
- ⁴- أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق علي البجاوي، محمد أبو إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1952، ص128.
- ⁵- محمد الناصر العجيجي: الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2003، ج1، ص81.
- ⁶- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تحقيق صلاح الدين الهواري، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996، ج2، ص439.
- ⁷- المصدر السابق: ج2، ص440.
- ⁸- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، ط1، 1986، ص406.
- ⁹- المرجع نفسه: ص407.
- ¹⁰- عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر، د ت، د ط، ج1، ص42.
- ¹¹- إيليا حاوي: فن الوصف و تطوره في الشعر العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980، ص6.
- ¹²- الزوزني شرح المعلقات السبع، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2004، ص54.
- ¹³- نبيل رشاد نوفل: العلاقات التصويرية بين الشعر العربي و الفن الإسلامي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1993، ص69.
- ¹⁴- إيليا حاوي: فن الوصف و تطوره في الشعر العربي، ص7.
- ¹⁵- النابغة الديباني: الديوان، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1996، ص16.
- ¹⁶- إيليا حاوي: فن الوصف و تطوره في الشعر العربي، ص11.
- ¹⁷- المرجع نفسه: ص11.
- ¹⁸- البحتري: الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط3، د ت، ج4، ص2090.
- ¹⁹- إيليا حاوي: فن الوصف، ص12.
- ²⁰- عبير عبد الصادق محمد بدوي: من روائع الأدب الأندلسي، دار النشر الدولي، العربية السعودية، ط1، 2013، ص127-128.
- ²¹- صلاح خالص: محمد بن عمار الأندلسي، مطبعة الهدى، بغداد، ط1، 1957، ص189.

- ²²- محمد. منير عبيد نجم: الطبيعة في شعر ابن عمار الأندلسي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، العدد6، 2012، ص295.
- ²³- ابن الأبار القضاعي: الديوان، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1985، ص94.
- ²⁴- حازم القرطاجني: الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1964، ص63.
- ²⁵- أحمد لمقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1988، ج2، ص347.
- ²⁶- ابن الأبار: الديوان، ص64.
- ²⁷- المقري: نفح الطيب، ج2، ص312.
- ²⁸- ابن الأبار: الديوان، ص100.
- ²⁹- المقري: نفح الطيب، ج2، ص342.
- ³⁰- ابن الأبار: الديوان، ص335.
- ³¹- نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الارشاد، العراق، 1966، ص116.
- ³²- المقري: نفح الطيب، ج2، ص267.
- ³³- المقري: نفح الطيب، ج2، ص267.
- ³⁴- ابن الأبار: الديوان، ص117.
- ³⁵- المصدر نفسه: ص190.
- ³⁶- المصدر السابق: ص296.
- ³⁷- المقري: نفح الطيب، ج2، ص326.